المكافأة

كان يتطلع إلى العمال دائبين على سد باب المخـزن بالحجـارة، وفـي أعماقـه انقباض، وفي نفسه رغبة جائشة تهيب به أن يفضي بها فيرده الخجل، والخـوف من الفشل.

إنه في هذا المخزن الكبير منذ ثماني سنوات، عاملٌ لا يزيد أجـره عـن عـشرة جنيهات.. ولو أن أطفاله في ازدياد حتى غدوا سبعة.

لم يكن حسين راضياً عن عمله.. وان الناظر اليه ليلمح في عينيه توقّداً، ويعجـب فيم كان صبره طوال تلك السنوات على أجر ضئيل رغم أزمة المعيـشة وغـلاء الأسعار.. ولكن إذا علمنا بأنه يوماً واحداً يمتنع فيه حسين عن العمل ينقطع عـن العائلة رغيفها اليومي وإذا علمنا بأن الراتب يستنفذ قبل انتهاء الشهر فيجبر على الإستلاف حتى تراكمت عليه الديون فهمنا ارتباطه بهذا المخزن على غير رضى مدة طويلة..

أما اليوم فحتى هذا المورد لن يدوم.. فها هم أصحاب المخزن الكبيـر يريـدون الهجرة.. إن أرواحهم لأغلى من أن تهرق في سبيل الوطن.

وطن! إن وطنهم حيث يقدرون على استنزاف الأموال ولو على حـساب إعاشـة فقير.. تراهم يحرمون الزبون من استحقاقه بمماطلته ليبيعوه في السوق الـسوداء وإذ يتأخر عن الوقت المحدد يصبح لديهم حجة قوية وشتى معاذير وتقع مشاحنات كثيرة ولكنهم على كل حال يبيعون نصف الإعاشة بالسوق السوداء. هـذا عـدا استغلالهم السوق التجاري ورفعهم الأسعار إلى ضعف سعرها الأصلي فيقبل بهـا المشتري، ساخطاً حيناً، شاكياً أخرى، دافعاً الثمن كل الأحيان!

بهذه الوسائل استطاع أصحاب المحل التجاري أن يملكوا من المال والعقـار مـا جعلهم في الصفوف الأولى من أغنياء فلسطين.. أما حسين العامل المسكين المعيل فالمخزن لا يحتمل زيادة أجره.

هذا كان في الماضي.. أما اليوم فالمخزن سيقفل، وها هم العمال دائبون على سـد بابه بالحجارة حذرا من القنابل، وخوفاً من النهب والسلب، أما اليوم فإنه سـيترك بلا مورد في أعصب الأوقات..

إن كثيرون يشترون الأسلحة والذخائر من مال قليل وفروه بعرق الجبين، ومـنهم من باع حلى زوجته.. أما هو فأين له المال المدخّر أو حلى الزوجة؟. وعلى كل لا يخشى سهام الموت بقدر ما يحسب حساباً لعـضة الجـوع.. فـالأولى ربمـا انحرفت عنه، أما الثانية فليس له من براثنها خلاص.. لقد أحس لدغها في نفـسه فكيف يصبر تحت وطأتها صغاره؟.

هموم ومشاغل تتحرك في خلده دوارة سريعة وتنهد بأسى وهو يقارن حاله بحال رؤسائه "حقاً لا يستمتع بالحياة سوى غني!".

إن حسين لم يعدم أذناً لاقطة وفكراً مميزاً، يحضر اجتماعات قيل له أنها تـسعى لتحسين حال العمال، ويستمع إلى مناقشات إخوانه في شتى الموضوعات العامة.. وهو على فهم بما يدور حوله بالرغم من أميته.. ويدرك سوء الأمر الذي يحدثـه هجرة الأغنياء من فلسطين وتقاعسهم عن إسداء يد المعونة للوطن، ولو من ناحية مادية ويتساءل أنقوم نحن بالدفاع وأكثرنا من السلاح عزل وأيدينا قـصيرة عـن شرائه؟ ولم ندفع نحن ثمن الشقاء: حياة حقيرة في السلم، ودمـاء رخيـصة فـي الحرب؟ أليس الوطن لنا جميعاً، وحقّه علينا جميعاً؟ فلم يفكرون به فـي رغـده، ويتنكرون له إذا نزل به البلاء؟

إنني في هذا الوطن لا أملك شبراً من الأرض أدافع عنه حتى لو ملكـت وسـيلة للدفاع، أما هم أصحاب الأملاك والأراضي فإنهم أبوا النزول عن بعـض المـال لاستئجار الحراس وشراء السلاح.. لم يساهموا في إنقاذ الوطن بل انهم فـضلوا الهجرة متملصين من الواجب تاركين وراءهم فراغاً في الديار، ومحدثين فيها مع غيرهم ثغرات يتغلغل بها العدو ويحتلها لقمة سائغة بغير عناء.

كانت الأفكار تتضارب ثائرة حيناً، آملة أخرى وهو مكب على حمـل البـضاعة الثقيلة، واحداً بعد الآخر الى الداخل حيث لاتوجد إلا نافذة خلفية..

إن ما في هذا المخزن من مؤونة لتكفي لتموين آلاف العائلات لمدد طويلة بينمـا حسين لا يجد في منزله ما يحفظ رمقه وأطفاله لمدة أسبوع.. أتراهم يحسبون لـه حساباً قبل السفر؟ أرتاهم يمنحونه شيئاً يسد به رمقه أتراهم يكافئونه على خدمتـه لهم ثماني سنوات طويلة بأمانة وإخلاص! أم أن أمره لا يعنيهم ما دام لم يعد لهم

من فائدة؟ أيتركهم لأنفسهم! إنهم أبعد ما يكنون عن كـرم الطبـاع والمـشاركة الوجدانية.. أينبههم إلى ما فيه من ضيق، إلى واجبهم نحوه؟ الموظفـون ينـالون مكافأة، أما هو والعمال جميعاً فليس هناك من قانون يجبر أصحاب الأعمال عليها، ولو خدموا طيلة سني الحياة إذن فليس له إلاّ أن يستثير مروءتهم لمساعدته فـي وقت عصيب.

وتردد مرات قبل أن يواجه أحد رؤسائه بالطلب ينمق الكلمات ليرى مبلغ تأثيرها حتى اطمأن إليها، ولو أنه غير واثق من تحقيقها. وتطلع إلى حيث يجلـس أحـد أصحاب المحل وكان خير شركائه، وأرقّهم طبعاً فرآه منهمكاً في مخابرة تلفونية.. وانتظر حتى انتهى فتقدم منه وجلاً، وناداه هذا بدوره –" حسين إننـا سنـسافر، وسأترك منزلي بكل مفروشاته، ولست أجد مانعاً في انتقالك إليه مع العائلة حتـى أعود" وضحك حسين في ضميره ضحكة صفراء "لاتفكروا في إلاّ في شأن يعود عليكم بالخير"

-" أشكرك يا أبو نبيل، إن بيتكم في موقع شديد الخطـورة وأردف ضـاحكاً "إن الإنسان يفضل اليوم حجر فأر في أمان على قصر في منطقة خطرة، ولكـن إذا أحببتم أن تمنوا علي بمساعدة أخرى قبل سفركم أحفظ جميلكم ما حييت.

ووجدها فرصة ليهجر تردده بالتعبير عن مكنون رغبته، وأنصت إليه أبو نبيل في شيء من الضيق والاستحياء، ثم وعده بمكافأة يتشاور وشـركاءه فـي شـأنها، ويخبره النتيجة في اليوم التالي.

ونام حسين ليلته قرير العين تداعب الأماني جفنيه. إنها خمسون جنيها على أقـلّ تقدير أو بقيمتها مواد تموينية تكفيه وعائلته ريثما تحرر فلسطين. وإن تحريرهـا لسريع مادام العرب مجتمعين على نصرتها.

وأبطأ الفجر حتى انبثق على حسين فقام يتوضأ ويصلي مغتبط النفس خافق الصدر كلما ذكر بأن اليوم يحمل إليه بشرى ومكافأة ثمينة..

ووصل إلى مقر عمله فوجده مغلقاً وخجل من تسرعه وانقياده. وود لـو يظهـر بمظهر عدم الاهتمام فعزم على أن يبعثر الوقت في الشوارع الأخرى محدقاً فـي واجهات المخازن.

وعاد إلى المحل بعد ساعة من الزمن ووجد فيه غير من حادثـه بـالأمس مـن الشركاء إذ أطل من الكوة المفتوحة، فسلّم ودخل.
ومضى وقت طويل قبل أن يحضر أبو نبيل فانقبضت نفسه وسأل عنـه الـشريك فأجاب هذا دون اكتراث "أبو نبيل! إنه سافر إلى عمان في عمل ضروري إنجازه وأردف كأنما تذكّر أمراً لم يخطر على باله حتى الساعة "آه حقاً.. لقد أوصاني أن أحادثك في شأن"..
وانتعشت نفس حسين وأنّبها على تسرعها في سوء الظن.. إن أبا نبيل لم ينسه!
"إنك مديون لنا بخمسة وعشرين جنيهاً أليس كذلك يا حسين؟"
"بالضبط"
"أوصاني أبو نبيل أن أخصم منها خمس جنيهات مكافأة لك، ويتبقى لنا في ذمتـك عشرون جنيهاً!".
وذهل حسين ولم يجب، ثم رفع وجهاً شاحباً وتكلم وهو ينتزع الكلمات من حلقـه بمشقة:
-"أشكركم سأدفع ديني إلى آخر جنيه إن كتبت لنا الحياة".
وغادر المحل وما كاد يخرج حتى ذرفت عيناه دمعة محرقة أسرع يخفيها بنظارة شمس.

* * *

بعد شهر من الزمن كنا نرى رجلاً طويل القامة نحيل الجـسم يرتـدي ملابـس الحراس عند باب الخليل داخل أسوار القدس ينظر إلى جهة المونتفيوري.
إنه حسين، ولكن كم غيره هذا الشهر.. هذه المونتفيوري لم تعد تطلق النار.. إنـه أول يوم في الهدنة.. فليسترح إذن وإخوانه من عناء القتال.
وطرق سمعه صوت رجلين يتشاجران أحدهما أليف يسمعه يصرخ مغيظاً:
-"دعونا نطمئن على محلاتنا، قيل لنا أنها نهبت، إسمحوا لنا بالمرور لنتأكد مـن الحقيقة".
وأجابه الآخر وكان جندياً من الجيش العربي:
-"اذهب، اذهبوا جميعكم يا خونة!"

والتفت حسين إلى أبي نبيل وهو يجيب الجندي بصوت يدعو للرثاء:
-"نحن خونة؟ دمرت منازلنا ونهبت مخازننا وأصبحنا صفر اليدين"
وتقدم حسين وهمس شيئاً في أذن الجندي فقبل أن يسمح للرجل بالمرور. ورفع أبو نبيل عينيه الضيقتين ليشكر الحارس الطيب فيرى حسين عامله بالأمس..
وتلعثم أبو نبيل وهو يسأل حسين عن صحته وعن صحة عائلته..
وأجاب حسين: "العائلة! بقي منها ثلاثة على قيد الحياة جرحى في المستشفى".
وصاح أبو نبيل:
-"غير صحيح يا حسين"
وابتسم حسين ابتسامة مريرة ولم يجب
"وكيف كان ذلك؟"
-"قنبلة من القنابل التي ألقيت على القدس القديمة هدفها المسجد الأقصى والصخرة المشرفة فانحرفت إلى منزلنا وهو كما تعلم من الحرم قريب، فبطشت بمن اجتمع في ساحة الدار من الأطفال ودخلت شظاياها إلى الغرفة فجرحت أم الأولاد وطفلين آخرين"
وتهدج صوت حسين وتغرغرت عيناه فصمت. ولم يجد أبو نبيل من الكلمات ما يعزي به حسين فتمتم "لا حول ولا قوة إلا بالله" وسارا سويا مطرقين إلى المحل.
إنه على حاله لم يمس من الخارج.. الباب مغلق بالحجارة ولا أثر لهدم أو خراب فكيف حدث النهب؟
وسار حسين بأبي نبيل إلى نهاية الشارع ودخلا المخزن الأخير الذي حطم بابه ومنه جعلت فتحات متهدمة تصل المخازن بعضها ببعض وجميعها قد نهب ما بداخلها.
ووصل أبو نبيل إلى المحل وأجال فيه ناظريه.. كان نظيفاً كباطن اليد، ودار بعينيه أسفاً على ما فات، وتكلم خافض الصوت.. "دعنا نعود أدراجنا يا حسين، فما نربح من وقوفنا ألاّ وجع القلب وحرقة الكبد.

وأدرك للمرة الأولى أنه جزء غير منفصل عن الوطن، هو في خير ما دام الوطن في خير وهو في ضر إن أصابه الضر. وللمرة الأولـى أدرك أن الأنانيـة قـد غدرت به، وسلبته في لحظة ما أغدقته عليه العمر كله..